

ذكريات مع طه حسين

كنت في حوالي العاشرة من عمري حين قرأت للمرة الاولى كتاب « الايام » لطله حسين . وقد عشيت اسابيع وشهورا مع ذلك الصبي الذي كانه المؤلف ، اعاني ما يعانيه من حزن والم ، او من رضى وفرح ، واسير الى جانبه في عالمه الداكن الظلمة من خارج ، الناصع الاشراق من داخل ، واتابعه في مراحلها الاولى التي كان وعيه يكتمل فيها بالقدر الذي كتب له ، فيقبل هذا القدر راضيا ، ولكنه يصمم على النضال حتى يجعله قدرا بصيرا ، يعوض به عن عاهة العمى التي اصيب بها في طفولته .

وبلغ من تأثير « الايام » في نفسي وفكري اني تمنيت ان اعيش حادثة كحادثة طه حسين ، وان تتاح لي في المستقبل فرصة كتابة قصة هذه الحادثة (1) . . . ولست اشك الان في ان قبولي الالتحاق بالمعهد الديني الذي انتسبت اليه ، وانا في الحادية عشرة ، كان مقودا برغبة مكنونة في النفس ان اعيش التجربة التي عاشها ذلك الفتى وان اعاني معاناة حقيقية ظروفها ومؤثراتها . وكنت على وعي مبكر بأن نعمة البصر التي حرّمها صاحب « الايام » ربما اتاحت لي من كنوز الادب والعلم ما لم يكن متاحا له ، فانصرفت اغذي هذا الوهم بقراءات كثيفة في الادبين العربي والفرنسي ، حتى ان رفاقي في المعهد الديني ما يزالون يذكرّونني بانهم قلّمّا كانوا يروني في اوقات الفراغ خارج مكتبة المعهد . . .

وكنت اتابع بلهفة كل ما كان يكتبه طه حسين ، واجد فيه حافزا لمزيد من المعرفة اكتسبه ، وعزفت عن الدراسة الدينية الى الادب الذي كنت اميل اليه . وقد بلغ من طموحي اني بدأت ، وانا بعد في الرابعة عشرة ، ترجمة رواية فرنسية اعجبت بها اعجابا عظيما ، هي رواية « مولن الكبير » لالين - فورنيه ، وبذلت في ترجمتها طوال عام جهدا مضنيا لم تكن تأك السنّ لتحتمله . حتى اذا فرغت من الترجمة ومن تنقيحها ، تجرت فأرسلت بالمخطوطة الى طه حسين الذي كان مشرفا آنذاك على اصدار « الكاتب المصري » ومنشورات « دار الكاتب المصري » . وقد اصابني الدهول حين بافني ان الدكتور طه وافق على نشر الترجمة ، فملأني ذلك اعتزازا وزهوا ، ورحت انتظر بفارغ الصبر الاعلان عن صدور الكتاب ، ولكنني فوجئت يوما باحتجاب مجلة « الكاتب المصري » واغلاق فرع دارها الناشرة .

ولم يفت ذلك في عضدي ، بل منحني شحنة جديدة من الحماسة لتعميق ثقافتي الادبية . ولعلّ الحلم الذي كان يداعبني في السفر الى فرنسا واعداد اطروحة دكتوراه في الادب والاقبال على مناهل الثقافة الفرنسية - لعلّ حلمي هذا انما كان صدى خفيا لرحلة طه حسين الى فرنسا وفوزه بشهادة الدكتوراه فيها .

بل لعلّ الاصل في اعتزامي اصدار مجلة « الاداب » وانا بعد في باريس ، كان املا عندي في ان تحل محلّ مجلة « الكاتب المصري » التي عنيت عناية خاصة بدراسة نظرية الالتزام في الادب ، هذه النظرية التي اتيح لي ان اتعمقها في العاصمة الفرنسية . واذكر اني كتبت للدكتور طه حسين رسالة ابلغه فيها نيتي في اصدار المجلة واورد له خطوطا عامة من سياستها التحريرية ، فكتب لي مشجعا . والحق انه استجاب ، فيما بعد ، لبضعة

(1) وقد كتبها بالفعل عام 1958 في روايتي الثانية « الخندق العميق » .

استفتاءات طلبت منه ان يشارك فيها ، فازدت حباله ، وجعلت أنتظر الفرصة التي تسمح لي بلقائه .

غير اني كنت اتهيّب مواجهة هذا الرجل العظيم الذي ملأ حدائتي بشخصيته وادبه ، وآثرت ان انتظر مناسبة عفوية تجمعني به كنت اظنها ستسبح في المؤتمر الاول للادباء العرب الذي عقد في مصيف بيت مري في لبنان عام ١٩٥٤ . ولكن ظني وظن كثيرين من الادباء خاب ، حين ارسل الدكتور طه يعتذر عن حضور المؤتمر بسبب موقف غير كريم وقفته منه السفارة اللبنانية في القاهرة آنذاك ، كما جاء في كتاب اعتذاره .

وساءني جدا الا القاه ، وأسفت ذلك الموقف الذي ربما كان ناشئا عن لبس او سوء فهم ، فاقترحت على جمعية المقاصد الاسلامية ، التي كنت اشرف على لجنة المحاضرات فيها ، توجيه دعوة خاصة الى الدكتور طه لاجراء مناظرة مع الاستاذ ريف خوري (رحمه الله) . وقد وافقت الجمعية ووافدتني الى القاهرة لمقابلة عميد الادب العربي .

كان ذلك في اوائل عام ١٩٥٥ . وحين دخلت على الدكتور طه في غرفة مكتبه ، كان جسمي يرتعش تهيبا . وزادني رهبة الوف المجلّدات التي كانت تكسو جدران مكتبته ، واشعرتني بانني ان ابلغ ، مهما بذلت من جهد ، ما كان هذا الرجل الجبار قد بلغه من ثقافة ومعرفة . وبعد ان تحدثنا قليلا ، بحضور سكرتيره فريد شحاتة ، قبل الدعوة الى بيروت واجراء المناظرة مع ريف خوري في موضوع «ايكتب الاديب للعامة ام للخاصة» . وحين استأذنته بالانصراف ، وانا ممتلي فرحا بقبوله الدعوة ، استوقفني قائلا لسكرتيره :

— فريد ، أعد للاستاذ سهيل امانته القديمة !

فلم افهم قصده ، الى ان استخرج سكرتيره مفتافا فتحته والامر ملتبس عليّ ، فعرفت فيه مخطوطة ترجمة «مولن الكبير» ...

قال الدكتور طه وهو يتسم ابتسامته الهادئة :

— انني احتفظ بها منذ اكثر من عشر سنوات . ولعلك نسيته ، او ظننت انها ضاعت . لا يا استاذ ، اننا لا نضيع جهود الادباء !

شكرته وانا اتمتم بعبارات التأثر ، وخرجت وقد استطلت في عيني قامته .

كنت حريصا ، بعد ذلك ، على ان اقوم بزيارة طه حسين كلما قصدت القاهرة . وكان يلقاني دائما بالترحيب والمحبة . وقد توثقت اوامر الصداقة بيننا في احاديث طويلة حضرت بعضها زوجتي . ولما عرف انها ترجمت بعض الكتب ، جعل يحدثنا بفرنسية صافية لا تقل اناقة عن لفته الام . ثم تعافدت معه على بعض كتبه ، وكان آخرها «مذكرات طه حسين» التي يتم فيها جزئي «الايام» .

لقيت الدكتور طه في بعض المؤتمرات الادبية ، ولقيته اكثر من مرة على متن الباخرة التي كانت تقله صيف كل عام الى أوروبا وترسو ساعات في مرفأ بيروت . وكان لا يفتأ يسألني عن «الاصدقاء اللبنانيين» الذين لم يكن ينسى واحدا منهم ، ولو لقيه مرة واحدة ، بضع دقائق . وقد تأثر تأثرا شديدا لوفاة المرحوم ريف خوري حين ابلغته اياه ، وذكرني بمناظرته معه قائلا ان اساسها غير صحيح اصلا ، لان الاديب يكتب للخاصة والعامة في وقت واحد ، وانه انما قبل الاشتراك فيها لانه كان يرغب في زيارة لبنان الذي يحبه ، فأجبتته بانني كنت انا كذلك اعني ما في موضوع المناظرة من تكلف ، ولكننا كنا في مثل حرصه على ان يلقي المعجبين الكثيرين به في بلدنا .

وكان آخر لقاء لي به منذ عام تقريبا . اتصلت بمنزله فواعدني سكرتيره الجديد بعد ظهر يوم من ايام شباط (فبراير) . غير ان الذي استقبلني كان صهره الدكتور محمد حسن الزيات الذي ابأفني ان الدكتور طه كان متعبا ذلك اليوم ، وانه يفضل ان يستقبلني في اليوم التالي .

في هذا اللقاء الاخير ، كان الدكتور طه يتكلم بجهد ومشقة وقد اكتسى وجهه صفرة عجيبة . ولاحظت ان تلك الذاكرة العظيمة التي كانت احدي مزاياه الكبيرة ، قد بدأت تخونه ، فلم اشأ ان اطيل زيارتي واكلفه مشقة الحديث ، فاستأذنته وانا اشعر ان هذا الانسان الذي قضى حياته كلها في النضال الفكري والجسدي يستسلم اخيرا للقدر .

ولقد حرمتني حرب تشرين ان امشي مع الوف المحبين والمعجبين ، وراء نعش هذا الاديب العظيم والانسان النبيل ، هذا الذي ملأ حياة جيلنا ، منذ نعومة اظفاره ، بحسن الكفاح وروح الطموح .